المحاضرة التاسعة: جدلية العقل والفضيلة: دراسة استقصائية شاملة في الأخلاق القديمة وتجلياتها في الفلسفة الإسلامية

(الجزء الثالث)

علي كريم

الجزء الثالث: مقارنة تحليلية: المثالية ضد الواقعية

يمكن بلورة الفروق الجوهرية بين النسقين في محاور رئيسية تكشف عن عمق الاختلاف في الرؤية للإنسان والعالم:

محور المقارنة	أفلاطون (المثالية والوحدة)	أرسطو (الواقعية والتعددية)
مصدر القيمة	**متعالٍ** :(Transcendent) القيمة تنبع من عالم المُثل. الأخلاق اكتشاف لحقائق وجودية مفارقة.	**محايث** :(Immanent) القيمة كامنة في الطبيعة البشرية وفي تحقيق الوظيفة .(Telos) الأخلاق بناء إنساني عقلاني.
طبيعة السعادة	**داخلية ومحصنة** :السعادة هي انسجام النفس. الرجل العادل سعيد حتى تحت التعذيب (نظرياً). الحظ لا يؤثر في جوهر السعادة.	**هشة ومركبة** :السعادة تتطلب الفضيلة + "الخيرات الخارجية" (مال، صحة، أصدقاء). الحظ السيء قد يحرم الفاضل من السعادة (مثال بريام)[15].

أرسطو (الواقعية والتعددية)	أفلاطون (المثالية والوحدة)	محور المقارنة
التمايز: يمكن تحليل الفضائل بشكل مستقل. قد يملك المرء فضائل معينة ويفتقد أخرى، رغم دور الحكمة العملية في توحيدها نسبياً[4].	**الوحدة الصارمة**: الفضائل كلها وجه واحد للمعرفة. من يملك الحكمة يملك كل الفضائل.	**وحدة الفضائل**
إصلاح محافظ: احترام المؤسسات القائمة (الأسرة، الملكية) كضرورات طبيعية. نقد المشاعية لأن "ما هو مشترك بين الجميع لا يعتني به أحد[6]."	**هندسة اجتماعية جذرية**: إلغاء الأسرة والملكية الخاصة للحراس، مساواة تامة بين الجنسين، حكم الفلاسفة المطلق.	**المنهج السياسي**
الاعتياد (Habituation): التركيز على الممارسة والتكرار. "نصبح شجعاناً بممارسة الشجاعة". الأخلاق "عادة" قبل أن تكون معرفة[5].	**التحول العقلي**: التركيز على الجدل والرياضيات لتوجيه النفس نحو المُثل.	**التربية الأخلاقية**

الجزء الرابع: الاستقبال الإسلامي: التوفيق، التهذيب، والتأصيل

لم يكن اللقاء بين الفكر الأخلاقي اليوناني والفلسفة الإسلامية مجرد عملية نقل سلبية، بل كان تفاعلاً خلاقاً أدى إلى ولادة أنساق أخلاقية جديدة. وجد الفلاسفة المسلمون في التراث اليوناني أدوات عقلية لصياغة رؤية تتناغم مع الوحي، وقاموا بملء الفراغات النظرية، وتعديل المفاهيم لتلائم التوحيد الإسلامي[8].

أبو نصر الفارابي: المدينة الفاضلة والدمج بين الحكيم والنبي

يُعد الفارابي (ت 950م) المؤسس الحقيقي للفلسفة السياسية في الإسلام. قام بمشروع توفيقي ضخم يهدف إلى المواءمة بين "شريعة" النبي و"حكمة" الفيلسوف[23].

- **الرئيس الفاضل** :استلهم الفارابي مفهوم "الفيلسوف الملك" من أفلاطون، لكنه أعاد صياغته ليصبح "النبي-الفيلسوف". الرئيس الأول للمدينة الفاضلة هو من اتصل عقله بـ "العقل الفعال" (مصدر المعرفة الكونية). هذا الاتصال يمنحه الحكمة (كفيلسوف) ويمنحه الوحي والقدرة على التخيل والتشريع (كنبي)[25].
- **تصنيف المدن** :يتبنى الفارابي تصنيفاً أخلاقياً للمجتمعات بناءً على معرفتها بالحقائق الكلية وسلوكها.
    - **المدينة الفاضلة** :هي التي يتعاون أفرادها لبلوغ السعادة الحقيقية.
    - **المدن الجاهلة** :هي التي لا يعرف أهلها السعادة الحقيقية ويظنونها في اللذة (مدينة الخسة) أو المال (مدينة النذالة) أو المجد (مدينة الكرامة).
    - **المدن الفاسقة** :هي التي يعرف أهلها الحقائق (مثل أهل المدينة الفاضلة) لكن *أفعالهم* تخالف علمهم (مثل أهل المدن الجاهلة). هذا التصنيف يعكس فهماً عميقاً لأرسطو (مشكلة ضعف الإرادة) وأفلاطون (الفساد السياسي)[26].

- **السعادة** :يميز الفارابي بين السعادة الدنيوية والسعادة القصوى، جاعلاً الأولى وسيلة للثانية، ومؤكداً أن المدينة الفاضلة هي "اجتماع" ضروري لأن الإنسان لا يبلغ الكمال وحده[25].

ابن مسكويه: الأخلاق كطب للنفوس(Refinement of Character)

يمثل ابن مسكويه (ت 1030م) في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" قمة النضج في "أنسنة" الأخلاق اليونانية ودمجها في السياق الإسلامي العملي[28].

- **المنهج الطبي** :يتعامل ابن مسكويه مع الأخلاق كصناعة طبية. النفس لها صحة (الفضيلة) ولها مرض (الرذيلة). مهمة الفيلسوف الأخلاقي هي حفظ الصحة واستعادتها عند فقدانها.
- **دمج أرسطو وأفلاطون** :يتبنى ابن مسكويه تقسيم أفلاطون الثلاثي للنفس (الناطقة، الغضبية، البهيمية) ويوزع عليها الفضائل الأربع (الحكمة، الشجاعة، العفة، العدالة). لكنه عند تعريف هذه الفضائل، يستخدم نظرية "الوسط" لأرسطو بدقة متناهية.
  - مثلاً: العفة هي وسط بين الشره (إفراط) وخمود الشهوة (تفريط).
  - الشجاعة هي وسط بين التهور والجبن.
- **التربية والتغيير** :يرفض ابن مسكويه القول بأن الطباع لا تتغير، مؤكداً (مع أرسطو) على دور "الاعتياد" والتربية. يرى أن الشريعة الإسلامية تقوم بدور "التقويم الأولي" للنفس، لتهيئتها لقبول الحكمة الفلسفية الدقيقة[28].
- **الصداقة والمحبة** :يخصص ابن مسكويه حيزاً كبيراً للصداقة، متأثراً بالكتب الثامن والتاسع من "الأخلاق النيقوماخية". يرى أن الإنسان "مدني بالطبع" ليس فقط

للحاجات المادية، بل للحاجة النفسية للأنس والمحبة. الصداقة هي الفضيلة التي تربط المجتمع، وهي أرقى من العدالة لأن العدالة قسرية بينما الصداقة طوعية[31].

ابن رشد: الإنصاف الاجتماعي والواقعية التاريخية

يمثل ابن رشد (ت 1198م) العودة إلى النصوص الأصلية ومحاولة تنقيتها من التفسيرات الأفلاطونية المحدثة. واجه ابن رشد تحدياً فريداً: لم يصل إليه كتاب "السياسة" لأرسطو، فاضطر لشرح "الجمهورية" لأفلاطون، لكنه قرأها بعقلية أرسطية واقعية[10].

- **قضية المرأة** :لعل أجرأ إسهامات ابن رشد هو تبنيه القوي لرأي أفلاطون في مساواة المرأة بالرجل في الكفاءة. ينتقد ابن رشد بشدة واقع المرأة في المجتمعات الإسلامية (والأندلسية خاصة)، حيث يُنظر إليها للإنجاب فقط. يجادل بأن النساء يشاركن الرجال في النوع الإنساني، وبالتالي يشاركنهم في القدرة على ممارسة الفضائل، بما في ذلك الحكمة والرئاسة والحرب. يعزو ابن رشد فقر وضعف دول زمانه جزئياً إلى تعطيل قدرات نصف المجتمع، مما يحول النساء إلى "كَلّ" (عبء) اقتصادي واجتماعي[10].
- **تحليل الاستبداد** :طبق ابن رشد نظرية أفلاطون في "تدهور الدساتير" على التاريخ الإسلامي. رأى أن دولة الخلفاء الراشدين كانت نموذجاً لـ "المدينة الفاضلة". ثم تحولت مع الأمويين إلى "تيموقراطية" (حكم الشرف والغلبة). ثم تدهورت في زمانه (عصر ملوك الطوائف والمرابطين) إلى حكم الأوليغارشية (حكم الأقلية الغنية) والاستبداد .(Tyranny) هذا التحليل يظهر قدرة الفلسفة اليونانية على تقديم أدوات نقدية للواقع السياسي الإسلامي[32].

الجزء الخامس: الخاتمة والآفاق المعاصرة

إن استعراض فلسفة الأخلاق عند أفلاطون وأرسطو، ومسار تحولاتها في الفكر الإسلامي، يكشف عن حيوية مذهلة لهذه الأفكار التي تجاوزت حدود الزمان والمكان.

1. **التكامل الجدلي** :العلاقة بين أفلاطون وأرسطو ليست علاقة نفي، بل تكامل. قدم أفلاطون "الروح" والغاية المتعالية، محذراً من الغرق في المادة. وقدم أرسطو "الآلية" والواقعية، محذراً من الغرق في الأوهام.
2. **الراهنية المعاصرة** :تشهد الفلسفة المعاصرة عودة قوية لـ "أخلاق الفضيلة (Virtue Ethics) " كبديل عن النظريات النفعية والكانطية الجافة. فلاسفة مثل "ألاسدير ماكنتاير" و"مارثا نوسباوم" يستعيدون أرسطو لمواجهة أزمات الحداثة الأخلاقية، مؤكدين على أهمية "الشخصية (Character) "و"الازدهار (Flourishing) "بدلاً من القواعد الجامدة[7].
3. **الإرث الإسلامي** :أثبت الفلاسفة المسلمون أن العقل الإنساني قادر على بناء جسور بين "الحكمة" و"الشريعة"، مقدمين نماذج مبكرة وناضجة لما نسميه اليوم "الأنسنة الدينية (Religious Humanism) "، حيث تصبح الأخلاق مشروعاً لتحقيق كمال الإنسان في الدنيا والآخرة معاً.

هذا التراث الفلسفي المركب يظل منجماً غنياً، يعلمنا أن الأخلاق ليست قيوداً، بل هي فن العيش (Art of Living) ، وهندسة النفس، والطريق الملكي نحو السعادة.

جدول مقارنة تفصيلي للمفاهيم الأساسية

عند الفارابي وابن مسكويه	عند أرسطو (الأخلاق النيقوماخية)	عند أفلاطون (الجمهورية)	المفهوم
التوفيق بين العقل (اليوناني) والوحي (الشريعة).	الطبيعة البشرية)الوظيفة.(Ergon/	عالم المُثل (مثال الخير).	**مصدر الأخلاق**
وسط (كما عند أرسطو) + طهارة النفس.	وسط بين رذيلتين + عادة راسخة.	المعرفة + انسجام أجزاء النفس.	**تعريف الفضيلة**
الحكمة (الفارابي) / المحبة (ابن مسكويه).	الحكمة العملية .(Phronesis)	العدالة (الكلية).	**أهم فضيلة**
رئاسة النبي/الفيلسوف (المدينة الفاضلة).	الحكم الدستوري المختلط (واقعية).	حكم الفلاسفة (يوتوبيا).	**النظام السياسي**
ابن رشد: مساوية للرجل (نقد الواقع).	أدنى مرتبة (طبيعة خاضعة).	مساوية للرجل (حارسة وفيلسوفة).	**المرأة**

تمثل هذه الدراسة محاولة لإعادة قراءة هذا التراث الضخم، مؤكدة أن أسئلة سقراط وأفلاطون وأرسطو عن "الخير" و"السعادة" و"العدالة" لا تزال هي أسئلتنا نحن، وأن إجاباتهم - وإن تقادمت تفاصيلها - لا تزال تحمل وهج الحقيقة.